الواعظ المعرب عن حقيقة المسلم المتأدب

للعارف الكبير * الوارث المحمدي

السيد محمد أبي الهدى الصيادي الحسيني الخالدي الرفاعي

رضي الله عنه وقدس سره

(١٢٦٦ - ١٣٢٨ هـ)

الواعظ المعرب

عن

حقيقة المسلم المتأدب

لوحيد العصر وعلَّامة الدهر الوفيّ الأبيّ

الناصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم في جميع الشؤون والمساعي

العارف بالله

السيّد محمّد أبي الهدى الصيّادي الحسيني الخالدي الرّفاعي

رضي الله عنه وقدّس سرّه

١٢٦٦ - ١٣٢٨ هـ

﴿ إن أُريد إلَّا الإصلاح ما استطعت
وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب ﴾

قرآن كريم سورة هود آية ٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على السيد المصطفى وآله الشرفا وأصحابه الحنفا وعلى عباد الله الذين اصطفى .

أما بعد فيقول العبد العاجز : محمد أبو الهدى الصيادي ـ كان الله له عوناً في كل حالٍ خفي وبادٍ ـ قد أكثر جماعة من الحاسدين وعُصبة من المُـدَلِّسين في الدين إبداء الطعن فيمن صلَّى وصام وذكر الملك العلّام ونسبوه إلى التعصُّب على المعنى المقصود عندهم وحملهم على إشاعة ذلك جهلهم وقد ابتليت ببعضهم ولله الحمد إلّا أنهم قد تجاوزوا في مسير عدوانهم الحـد وأقـام بعضهم الأدلة على أن التعصُّب شأن العلماء بهذه الأمة ، وكانت أدلَّته صلاة العالم وصيامه ، وذِكر الشيخ المخلص وتهجده وقيامه ، وعَدَّ ذلك عقلاً عتيقاً وفتح للطعن من هذا الباب طريقاً فقال له لسان الحال وهو أبلغ بياناً من لسان المقال :

قل إلى الحاسد الذي مات غيظاً　　لك سوء الجـزا بيوم الحسـابِ
ولـك الويل نحن في الأفق قدراً　　لا يضـرُّ السحـاب نبح الكلابِ

* * *

أي مُبْـطِلٍ حار بك فكرك ، وتشتت عليك أمرك ، تجعل المتمسك بدينـه مُتعصِّباً للواهيات ، وتراه بعين جهلك وحسدك إذا احترم النوع الإنسـاني خائضاً لُجج الخطيئات ، وكأنك مع ما فيك من الرذائل والقبـائح ، مُقْتَـدى كل عالم ، وإمام كل صالح ، حُجَّتك تارة عليه

أدبه ، وتارة تعصُّبه ، فإن زعمت أن التعصُّب عيب المسلم فقد مدحته بلسان حسدك ، وإن زعمت خطيئته أدبه افتريت وغِبت عن رشدك ، وخذها إليك رسالة سميتها ﴿ الواعظ المُعرِب ﴾ (عن حقيقة المسلم المتأدِّب) قال قائلها لصنوف الأمة المحمدية في البلاد الإسلامية : معاشر المسلمين أصلح الله لي ولكم الدين ، ماذا نصنع بقوم يُطلقون على الرجل المسلم لفظة المتعصِّب التي تفيد الغلظة والجفا والسعي لغير أبناء دينه بالضرر والأذى وما الحيلة فيمن انصرفت فكرته لهذا الإطلاق مع كونه مُسلماً فيما يدَّعي ، والحال لم يكن سر الإسلام يعي ، وما بقي من التدبير إن كان ينفع ، إلاّ ذِكر حال المسلم لمن يعقل ويسمع ، فلفظة الإسلام لغة هي الاستسلام والانقياد والإذعان ، وشرعاً الانقياد للأفعال الشرعية الظاهرة وسيأتي من الأحكام الشرعية مايُظهر للمتعنِّت أنَّ من انقاد للأفعال الشرعية الظاهرة لايكون مُتعصِّباً كما زعم ووصف بل يكون هو المسلم الذي وصفه الرسول الأعظم بقوله « المسلم من سَلِم الناس من يده ولسانه » وفي هذا كفاية عن الإيضاح والتطويل لمن يفهم ، وليعلم أن بناء الإسلام على خمس : شهادة أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحجِّ البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، والركن الكافل لتمهيد هذه الأركان الخمسة الجهاد فلنبحث عن هذه الأركان الخمسة وعن الركن السادس الذي اعتبرناه كافلاً لتمهيدها وإن كنا بسطنا لها كتاباً ضخماً يحتوي على مجلدين إلاّ أنه لما ذكر الأحكام التعبدية والقضايا اللازمة فيها طال مداه، وأشكل فهم معناه ، على أن سرَّ التوحيد ظاهر باهر والطبائع المصنوعة كلها إذا تتبعت نهاياتها انقطعت أصولها ، ووهي مدلولها ، ورجعت إلى قدرته ، وانتهت إلى صُنعه وحكمته ، ومما أُلهمته في كتابنا ﴿ ضوء الشمس ﴾ قولي : كيف بك أيها الكريم الشيم إذا أحسن إليك أحد

بنحـو شربة ماء ولو كان من أتباعك وخدمك ألا ترى أن من الواجب عليك بحكم الطبيعة الإنسانية أن تبشَّ في وجهه وتقابله بالشكر على صنيعه لِتُسقط عنك حمل إحسانه ومعونته لك بشربة الماء ، وهلاّ إذا سقاك الماء خادمك ونهرته وأغلظت عليه القول ترى عند نفسك مؤاخذاً ملوماً ؟ بلى وهو المدرَك المعلوم لدى كل ذي لُبٍّ وعقل ، وإذا كان ذلـك ونِعَمُ الـربِّ تعالى قائمة معك لوجودك وحُسن تركيب صورتك وعافيتك في جميع أعضائك ووهْبُه لك العقل والفهم والتدبير والنُّطق من غير حول منك ولاقوة في سابق أمرك ولاحقه زيادة على ستره وتداركه إياك بلطفه في كل آن ولحظة وأكلك أنواع النِّعم وشربك أنواعها ولُبسك أنواعها ونومك في مهد الراحة والأمان وحفظك حالة نومك وتسخير كل نوع مخلوق لك واستخدام كل طبيعة نوعية لطبيعتك فهل لايجب عليك توحيده والتوجُّه إليه والتوكُّل الخالص عليه والشكر على نعمه والحمد على كرمه وهل من وجهة لولاه أو غاية سواه ومع هذا فإنك إن تركت حق هذه النعم وأهملت شكرها فقد كفرت حقوقها الواردة إليك وإن صرفتها إلى غيره فقد أوجبت لكل ماوصل من النِّعَم إليك حق الشُّكر عليك ، وأنَّى لك الإحاطة بكل ذلك ، وهل يُسلم عقلك فيما هنالك ، وما أحسن ماقاله بعض علماء الكلام : كل الممكن الوجود محتاج إلى غيره ، وهي قضية كلِّية تعمُّ أفـراد الممكن الـوجـود فإذا تتبعتها انتهت إلى ممكن وبالبداهة معلوم احتياج الممكن الوجود إلى غيره وللغير الممكن الوجود لايكـون إلاّ الـواجب الوجود سبحانه وتعالى وكلما تكون ذاته مقتضية لوجـوده لايقبل العدم لاستحالة اجتماع النقيضين وكلما لايجوز عليه العدم وجب له القِدم .

وفـي كل خلق له آية ... تدل على أنـه الصـانـع

* * *

فمتى علمت ذلك وتخلَّصت من ورطة الشكِّ والشِرك لزمك الإقرار بالرسالة لمافي ذلك من حقائق الإيقاظ والتنبيه الدافع لكل جهل والقاطع لكل خذل لأن طريقة المرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الطريقة التي ارتضاها الله تعالى لعباده مع بعضهم ومعه جلَّ وعلا ومتى نظرت طرائق المرسلين ـ عليهم السلام ـ رأيت أن ماوهبه الله لنبيِّنا محمد ﷺ من الأحكام الشرعية والمعاني القرآنية والحقائق الربّانية أعمُّ نفعاً للخلق وأقرب لرضا الحق وهي الجامعة لكل الشرائع وأسرارها ، والمشتملة على معالي الرسالة وأنوارها ، ولزمك أن تشهد له بالرسالة شكراً واعترافاً بنعمة الله عليك به ﷺ أن هداك من الضلالة ، ودلَّك على حالة فيها من الخير أحسن حالة ، على أنه قام ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتنفيذ الأمر الإلٓهي في الخلق وصار حجة للضعيف على القوي بإماتة الباطل وإحياء الحق ، وأتت شريعته سيدة كل شريعة بكل حُكم وحِكم لايثقل سرها بعد فَهْم حقيقتها على كل طبيعة ، فلذلك وجب إعزازه على كل عاقل وإعظامه واتِّباعه وتكريمه واحترامه ، ومن المعلوم أن الدين إذا لم يطمئن له العقل فليس بدين ولكن يلزم على النبيه أن لايغترَّ بعقله فيرى فيه القدرة على فهم حِكَم الدين كلها فهناك يعيب ما لايُعاب ويذم الدار قبل فتح الباب ويقال له :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

* * *

بل يلزم عليه السؤآل من أهل العلم بصحة الحال ، وأن لايقتنع بسؤال جاهل أو قاصر ، كما أنه لايعتمد على طعن جاهل وحاسد ومكابر ألا ترى قوله تعالى ﴿ فاسئلوا أهل الذِكر إن كنتم لاتعلمون ﴾ ومبالغة

في المقصود قال تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم ﴾ فانظر كيف قيَّد فهم تأويله بعد ذاته تعالى بالراسخين في العلم ، ولم يقل : والعلماء كائناً مَن كان ، وبيَّن لنا جلَّت قدرته أن الدين وأحكامه تحت الوسع بقوله : ﴿ لايكلِّف الله نفساً إلّا وسعها ﴾ وكل ماكان تحت الوسع فهو تحت العقل ، وبالغ القرآن في المقصود بقوله تعالى : ﴿ ماجعل عليكم في الدين من حَرَج ﴾ وقام بعد ذلك الرسول العظيم بأمر الله الخالق الكريم خليفة عن الله مُنفِّذاً لأوامر الله فمهَّد بالأمر الإلّهي أركان العدل وحكم بالحق ونشر لواء الراحة وحجب أيدي الظالمين عن المظلومين ، ورفع على رأسه لواء ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ﴾ وأيَّد طريقة التساوي بين الخلق أدباً مع الله في إنفاذ أوامره الطافحة في كتابه منها ﴿ يا أيها الناس اتَّقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ فانظر كيف فسَّرها كما هو حقها أكابر العلماء ومنهم علَم المفسرين الإمام الكبير الفخر الرازي حيث قال في تفسيره : وكون الخلق بأسرهم مخلوقين من نفس واحدة له أثر في هذا المعنى وذلك لأن الأقارب لابدَّ وأن يكون بينهم نوع مواصلة ومخالطة توجب مزيد المحبة ولذلك فإن الإنسان يفرح بمدح أقاربه وأسلافه ويحزن بذمِّهم إلى أن قال ـ رحمه الله ـ : فإذا كان الأمر كذلك فالفائدة في ذِكر هذا المعنى أن يصير ذلك سبباً لزيادة شفقة الخلق بعضهم على البعض . وقد علمت عقلاً وفهماً أن أشرف أنواع الخلق الإنسان ، ولايُجهل عندك إذا عقلت أن أعلى مراتب الإنسان خلافة الله الرسالة وأن أعلى مراتب الرسالة مرتبة أُولي العزم من الرُّسل وأعلى مراتبهم وأجمعها دعوة وأعظمها شرفاً وأرفعها ذكراً ومقاماً الرسالة التي اختصَّ بها سيد الأنبياء

محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالإنسان ثمرة العالَم وهو عليه السلام إنسان عين الإنسان ورسول الله إلى الخلق كافة والأصل في رسالته بالنسبة إلى الخلق الدلالة على الله وقَوْد الخلق إلى مكارم الأخلاق ولهذا نزلت الكُتب وشُرعت الشرائع وضُرِبت الأمثال والمواعظ واحتيج إلى الأنبياء والملوك والعلماء والوزراء والأعوان والإخوان والأصدقاء والمرشدين ولولا ذلك لم يحتج أحد إلى أحد واكتفى كل أحد بنفسه وعلى هذا ترتب الجزاء والعقاب والمدح والذم ألا ترى أن كلام الله ماأثنى على أحد إلاّ بعمل ولا ذمَّ أحداً إلاّ بعمل ولا وعد ولا أوعد إلاّ بعمل وقد جمع القرآن العظيم كل هذه التفصيلات بقوله تعالى : ﴿ لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ وأوضح سرّ ودّ الخلق ومحبتهم ونفعهم : الحديث الكريم وهو « الخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله » وقوله عليه السلام : « خير الناس أنفعهم للناس » ومثل هذا في السُّنة كثير لايعدّ وأوضح سرّ أذيَّة الخلق والجور عليهم بقوله عليه السلام : « أهل الجور وأعوانهم في النار » ومثله في السُّنَّة كثير جداً وقد بيَّن الشارع الكريم أن بعثته الكريمة إنما هي لإتمام مكارم الأخلاق بقوله عليه السلام : « إنما بُعثت لأُتمم صالح الأخلاق » وقال : « بُعثت لأُتمم مكارم الأخلاق » وقال : « إنما بُعثت رحمة ولم أُبعثْ عذاباً » وقد أمر الله المسلمين باتِّباع حبيبه ﷺ فقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتَّبعوني يُحببكم الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ومن معنى الندب على الاقتداء ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وغير ذلك من الآيات الكريمة وقال عليه السلام : « عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها

بالنواجذ » إلى غير ذلك وقد تبيَّن لك أن سنَّة الله في أنبيائه ورسله وسنَّة الأنبياء وبالخاصة سنَّة السيد السند الجامع ﷺ حب الخلق ونفعهم والتودد إليهم حتى قال: « الكلمة الطيبة صدقة » وقال أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ: خير الناس من ينفع الناس . وقال سيدي السيد أحمد الرفاعي الحسيني ـ قدس سره ـ: لايكون أحقر وأرذل من عبد ليس بينه وبين عباد الله أُلفة ومحبة بل مثل هذا لايكون به نفع . وهكذا خُلُق أولياء الأمة وأجلّائها وعلمائها وذلك كله قام في صدور المسلمين من مخافة الله الواحد الأحد الفرد الصمد ـ سبحانه وتعالى ـ وإطاعته واتِّباع رسوله المعظم ﷺ فإذا كان هذا الأصل ثابتاً في الدين فأي مسلم يُعطى عنوان التعصُّب كما زعم ووصف الجاهل الجاحد أو المتعنت الحاسد وليُعلم لديك أن العبد لما علم أنه مسؤول بين يدي خالقه عن المنهيات ومُثاب على المرضيات ألزم نفسه العمل بما يكفيه عقاب السؤال ويُقرب إليه ثواب الأعمال ومن ثَمَّ وجب على العاقل التمسُّك بصحبة العالم العارف الحسن الخُلُق الظريف الطبع الراسخ وأن يتشبث بذيله وينحرف عن صحبة الجاهلين ألا ترى قول الله تعالى: ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ لأن الطبع البشري سرّاق قريب المأخذ كالماء يتلوَّن بلون إنائه وانظر قول الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه :

لا تصحب أخا الجهل وإيّاك وإيّاه
فكم من جاهل أردى حكيماً حين آخاه
يُقاس المرء بالمرء إذا ما هو ماشاه
وللشيء على الشيء مقاييس وأشباه

* * *

وقال رضي الله تعالى عنه :

لاتصحب الكسلان في حالاته … كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليل سريعة … كالجمر يوضع في الرماد فيخمد

* * *

وليعلم أيضاً أن من الإنصاف الكلام في الشيء ذمّاً ومدحاً بعد الوقوف على حقيقته فإنه قد يصحب الرجل العالم الفاضل سنين عديدة وهو جاهل به غير عالم بقدره بل قد يكون ذلك العالم صادق الجَنان مُحباً خالصاً لذلك الرجل وهو لعدم التجربة الصادقة الصحيحة يظنه عدواً له هذا في الأشخاص المرئيين فكيف بالشريعة وعلومها وحِكَمها وأساس قواعدها وأحكامها فهل يصحُّ لمنصفٍ غربي أو شرقي أن يسند لها النقص ـ تنزَّه مقامها عن ذلك ـ أو أن ينسب الغلظة والأذى والجفا لمن تمسَّك بها كل التمسك مع كونها أحكم نظام عادل بربط سلسلة الود والراحة والرحمة والشفقة والنفع والمعاضدة والمواصلة والخير بين النوع الإنساني . على أن النبي ﷺ أوضح أمر الآخرة وأوصل إليه ، وصحح أمر الدنيا ودلَّ عليه ، ألا ترى كيف حثَّ على العمل بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « إن الله يُحب العبد المحترف » وفي حديث آخر « إن الله يحب أن يرى عبده مُحترفاً » وعرَّفنا حثاً على الحرفة والعمل « إن لكل نبي حرفة » وكان زكريا يعمل بالطين وطالوت دباغاً وداود فلاحاً وسليمان خواصاً وابراهيم وموسى راعيا غنم وإدريس خياطاً وصالح تاجراً وقد كان أكابر الصحابة يحترفون ومرّ عمر ـ رضي الله عنه ـ بجماعة بطّالين فقال من أنتم ؟ قالوا : المتوكلون . قال : بل المتأكلون ؛

المتوكل من ألقى حَبَّه في بطن الأرض ، وتوكَّل على الله ، باشروا الأسباب بقلوب سماوية . ومعلوم أن النبي أخبرنا « أن الله يكره العبد البطال » وفي العمل والحرفة صلاح أمر الدنيا وقد أوضح ذلك القرآن أمراً قطعياً في مواطن شتَّى وأحكم الشرع أمر العمل أيضاً بما ينفع الخلق ولايمس منافعهم بأذيَّة بوجه ما ، والكتاب والسنَّة طافحة نصوصها بهذا كما سيأتي فمن أين التعصُّب والجفا للمتشرع ، وهنا أقول :

إن الدين الإسلامي أُصوله وفروعه العملية عبارة عن أربع كلمات لاغير :

الأولى طلب الحق بالحق .

والثانية اتِّباع الرسول بالصدق .

والثالثة بسط بساط الخير والعدل والأمن والراحة لجميع الخلق .

والرابعة ردُّ من تصدى لهدم هذا النظام الإلّهي بالنصيحة اللسانية فإن لم يرجع وأصرَّ على أذيَّة الخلق وسلب منافعهم فبالسيف إلى أن يفيء إلى أمر الله .

فمن أدرك هذه الأسرار الواضحة ، والبراهينِ الطافحة ، اعترف بأن هذه الديانة العظيمة أجلّ ديانة وهبها الله تعالى لخلقه ، في الأول والآخر والباطن والظاهر ، ومن لم يدرك ماقلناه قلنا له قول الشاعر :

﴿ وما عليَّ إذا لم تفهم البقر ﴾

إن الصلاة إذا تتبعت أحكامها وفهمت نظامها أدركت أن الله أوضح مافيها من كريم خوافيها بقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء

والمنكـر ﴾ ورأيت من حِكمتها التذكير بالوقوف بين يدي الله ، الذي لاتخفى عليه خافية ، في اليوم والليلة خمس مرّات ، لكيلا يغفل العبد بحجاب الغنى والثروة والشباب والصبوة والحول والقوة عن الله فيعدو على خلق الله ويصير فاحش المسلك مُتَّبعاً للمنكـرات ، وفي ذلـك مايكـفـي من التسلُّط على الخلق وهـدم نظام راحتهم والتغلُّب على طباعهم وإيقاع الحزن والكدر فيهم ، وهذا لو تتبعته لرأيته منافياً حق الوصلة الآدمية التي تقدَّم ذِكرها في قوله تعالى : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ وعند ذلك يكون من تجرَّأ على هذه الحالات مُتجرِّءاً على ربه مخـالفـاً لأمـر نبيه والله قال : ﴿ فيلحـذر الذين يُخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يُصيبهم عذاب أليم ﴾ الآية هذا مافي الصلاة من السرِّ الإلٓهي مجملاً وفيه كل مايلزم تفصيله وهو كافٍ عند من يعلم .

وأمـا الوجهة الأُخرى من أسرار العبودية التي هي خاصة بين العبد والرب كاستقبال القبلة والركوع والسجود والقراءة وغير ذلك ، فكما أن له أسرار نافعة في الدنيا ودقائقها واضحة إلّا أن انتظام الأمر الديني من وعـد ووعيد ونتيجة الاثنين من العمل فالنتيجة المذكورة المرتّبة على العمـل مع كونها استلزمت الوعد والوعيد الذي يظهر شأن نتيجته في الآخرة في الجنَّة أو في النار فكذلك استلزم حصول خير ونجاح أمر في الدنيا أو محق وكدر وفقر وخذل في الدنيا أيضاً بدليل قوله تعالى : ﴿ إنّا لانضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ وقوله : ﴿ فليحذر الذين يُخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ الآية وغير ذلك كثير جداً فما كان للآخرة يعتقد جزماً عند المسلم ولاسبيل لغيره على ردِّه لكونه مجهول الشأن لديه ،

وماكان للدنيا يعتقد لدى المسلم ويحسن به حاله وشأنه ومعيشته وصيته ولاسبيل لغيره على دفعه أو تنقيص مكنته وتحويل حكمته وليس له إلاّ القول بعلويته والشهادة بأرجحيته وأحقيَّته إلاّ إذا ألمَّ بالعناد أو كان من الحسّاد فإذا كان كذلك فلا حاجة لنا فيه وبليَّته تكفيه والسلام .

فحينئـذ ثبت لك أن صلاح أمر الـدنيا حاصـل بالتـديُّن بالـدِّين الإسـلامي لاغير ولاحجـة لمنكره وصلاح أمر الآخرة ثابت بدليل أمر الدنيا والقول لمنكر الآخرة ماقيل :

قال المنجِّم والـطبيب كلاهمـا لن تُحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحَّ قولكمـا فلست بخاسر أو صحَّ قولي فالخسـار عليكما

* * *

وما أرى من حجَّة للمنكرين إلاّ قولهم : لما كان دينكم هذه أُصوله وطريقته فأين عملكم وسعيكم وترقي ثروتكم . ويتخذون بعض الأدلة الواهية من تأخيرات الزمان حجة على الطعن في الشرع فما أقصر هذا الفكر وماهو إلاّ كمثل رجل رأى خاتم الماس جماني نظيم العقد في يد امـرىء عاجـز ضعيف البنية فعاب الخاتم ونسب له المساوي فكيف يتـرتب العيب ووصفـه على الخاتم عند العاقل ومع ذلك فالتأخيرات الوقتية لازالت تُزال بهمم الرجال كما هو مشهود .

ولنرجع إلى المقصود فنقول : من صلَّى عندنا ولم تنهه صلاته عن ظلم الناس وغدرهم وأكل أموالهم بغير الحق وأذاهم وتحقيرهم والحقد لهم وبغضهم وغير ذلك مما نهى الله عنه فلا صلاة له وتكون مجرَّدة من الثواب ويُضرب بها وجهه ، والزكاة إن كانت من مال مُغتَصب أو حاصل

بغير وجه شرعي مرضي عند الله فمردودة على صاحبها وهو مُعاقب على ماله مسؤول عنه من أين جمعه وفيما أنفقه وفي هذا سِرّان فيما يظهر : الأول : تقوية حزب المسلمين من أبناء دينه والنظر إلى فقرائهم بالمرحمة والشفقة وسد الرمق . والسرُّ الثاني : الحثّ بفضيلة الزكاة على جمع المال الذي يقبل الله زكاته وهو المجتمِعُ من حلالٍ خالص مُبرّء من الحرام فانظر حكمة الزكاة كيف حثَّت بفضيلتها على جمع المال وكيف تقيَّد قبولها بالحلال وكيف أنتج هذا الأمر طلب الحرفة والصناعة والعمل مع عدم الخيانة لأحد والحيلة والاغتصاب والظلم وكيف حصلت به التوسعة على فقراء الملّة وضعفائهم إلى غير ذلك من الحِكَم الغامضة .

وصوم رمضان إن لم يشتمل على صون اللسان من غيبة الناس والإفساد بينهم والتكلُّم بما يضرّهم وعلى صون العين من النظر إلى أعراض الخلق واليد والرِجل من الضرب والسعي لإيذاء أحدٍ من خلق الله وإهانته وعلى الإفطار والسحور من خالص المال الحلال وعلى ذِكر فقراء الخلق كلهم حالة جوعه إن كان غنياً أو على الصبر والسعي إن كان فقيراً فليس بصوم وكم غير ذلك من حِكَم لايسعها هذا الموضع .

وحجُّ البيت أوضَحَت فضيلته طلب الحرفة والصناعة واستحصال الثروة لتحصيل الراحلة والزاد وهي الاستطاعة المشروعة وانظر كيف تقيَّد قبول الحجِّ بعد الاستطاعة بالمال الحلال الخالص وانظر مافي الحج من بركة التعارف والوقوف على أحوال الإخوان من سائر أفراد الأمة مظلومهم وظالمهم فقيرهم وغنيهم وفي هذا من التناصر وحقوق الإنسانية

مافيه الكفاية وغير ذلك من الحِكَم المطوية .

ولما كان الركن الكافل لبقاء هذه الأركان الخمسة : الجهاد وبسببه يحصل تشييد الأركان المذكورة وكفُّ يد الباغي ألزمت الشريعة حفظاً لحق الآدمية وإكمالاً للحرية الطبيعية كل فرد من أفراد المسلمين الجهاد في الباغي حتى يسلك الطريق المستقيم ، والمنهج القويم حتى إن الشريعة منعت إجبار غير المسلم حالة الجهاد على الإسلام بل يُدعى أولاً إلى الإسلام فإن أبى فالجزية بشرطها ، وذلك مما يدلُّ على سعة الحرية الشرعية بهذا الدين المبين فكأن الشريعة قالت لغير المسلم : إذا لم تقم بهدم منار الحرية الشرعية ـ مع كون اعتقادك غير مُعتقَد المسلمين ـ فلابأس عليك وليس عليك إلاّ دفع بعض المال وذلك لتقوية العصابة المسلمة الخادمة لهذه الحرية الشرعية فمتى نقضت عهدك قاتلناك ومادمت قائماً بحقِّ الذمة والعهد فلاسبيل عليك ، وانظر كيف قتل النبي ﷺ رجلاً مسلماً قتل ذمياً وقال بعد قتله به : « أنا أولى من وفا بذمته » وجاء فيهم أيضاً « لهم مالنا وعليهم ما علينا » فما أعدل هذه الشريعة الغرّاء وما أجمل هذه المحجة البيضاء ، وانظر كيف ألزم القرآن العامة والخاصة بإجراء العدالة بقوله تعالى : ﴿ فاعدلوا ولو كان ذا قُربى ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى ﴾ وانظر قول النبي ﷺ : « العدل حسن ولكن في الأمراء أحسن » وقوله عليه السلام : « ثلاثة لاتُردُّ دعوتهم الإمام العادل » إلى آخره وغير ذلك مما هو كثير جداً ؛

وليتبيَّن لك أن الدين الإسلامي أوضح أن للخلق كلهم أي من النوع الإنساني على المسلم حق القرابة الآدمية بقوله تعالى: ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ وأوضح أن لكل من المسلمين على المسلم حق الأخوّة بقوله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ الآية فكانت مرتبة الأخوّة أقرب وصلة وأجدر وأليق بالودِّ والشفقة والتناصر وإعلاء مجد البيت ودوام نعمته .

وبعد هذه المرتبة مرتبة القرابة وحقوقها تحت حقوق المرتبة الأولى عند الإسلام وحِكمة ذلك ماصرَّح به الرسول بقوله: « الخلق كلهمِ عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعيالـه » وهي المـرتبـة العـامة وقوله عليه السلام: « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايخذله ولايحقره » وقوله عليه السـلام: « مثـل المسلمين في توادهم وتعاضدهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضـو منـه تداعى له الجسـد كله بالحمّى والسهـر » وهي المـرتبـة الخـاصة ، ومن المرتبة الشاملة قوله عليه السلام: « رأس العقل بعد الإيمـان بالله التـودد إلى النـاس واصـطنـاع الخير إلى كل بَر وفـاجر ». ومما يدل على شرف العقل الكامل الذي أشار إليه الرسول عليه السلام بأن أكمله ورأسه : التودد إلى الناس قوله ﷺ من حديث « ماتمَّ دين إنسان قط حتـى يتم عقله » إلى أن قال عليه السـلام من هذا الحـديث: « وصنـائع المعروف إلى الناس تقي صاحبها مصارع السوء » الآفات والهلكـات « وأهـل المعـروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة ، والعرف ينقطع فيما بين الناس ولاينقطع فيما بين الله وبين من افتعله » وفي حديث آخر « مداراة الناس صدقة » ؛

فعُلم صريحاً أن الحق الأول : عام يشمل الناس كلهم المسلم وغيره وحدّه الكفُّ عن أذاهم والنصح لهم بقَوْدهم إلى الحق والخير وما يُتمم سعادتهم ويُصلح شأنهم في الدنيا والآخرة. ألا ترى في هذه المرتبة كيف قال عليه الصلاة والسلام: « الراحمون يرحمهم الرحمن إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » وقوله من في السماء لاتعيين فيه لمحل ولا جهة وإنما المراد به : القلوب والهمم بجامع العلوّ في كلٍّ لأن العبد إذا أراد التوجه إلى الله ارتفعت همَّته إعلاءً وتعظيماً لله نحو السماء فكأنه يطلب فضل الله من جهة عالية شريفة ، ولكون السماء محل التنزلات الإلٓهية فقال: من في السماء بالنسبة إلى همم المخلوقين لاغير فافهم ؛ وقال في الكفِّ عن الأذى خاصة وهو أخص وأبلغ في بابه « من آذى ذميّاً فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » .

وانظر قول النبي عليه السلام في المرتبة الخاصة « من آذى مسلماً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله » فمن هنا : يُعلم لديك أنه قام خصماً عن الذمي رعاية لحق الآدمية ، وأنزل المسلم منزلة جزء منه فهذا التعميم والتخصيص سِرّان لطيفان يُفيدان علوّ حكمة هذا الدين الكريم ، على أن النوع الأول يخدم الإنسانية خدمة مُقيَّدة بالعهد والذمة على عدم الخروج عن حدِّ الإنسانية ، والعمل بأعمال من لم يخشَ الله ويعمل بما يرضيه من الأعمال التي فرضت عليه ، وينتهي عما نهاه ربه عنه من الظلم والغدر والنهب والسلب والتسلُّط على العِرض والمنزلة والحُرمة وغير ذلك فإن لم يقف غير المسلم أو المسلم حتى عند

هذه الحدود أمر الشرع بإقامة الحدود عليه حتى يفيىء إلى أمر الله فإن فاء غير المسلم إلى أمر الله وأسلم واعتقد صحَّة الأمر الإلّهي وعظَّم أمر الله ورسوله ونصر عصابة المسلمين على تشييد هذه الأركان المذكورة فقد نزل منهم بمنزلة العضو من الجسد وإن لم يعتقد صحَّة ذلك وسلَّم تسليم عجز وقصور عن إجراء غاية نفسه واتِّباع هواه وضلالة طبعه من سلب ونهب وغدر وظلم فقد اكتفت الشريعة عوض تسليمه هذا بأخذ بعض المال منه لتقوية حزب الله ولإبقائه على عجزه كي لايتوصل إلى ضرر الخلق وظلمهم وغدرهم وخديعتهم وغير ذلك وهو محفوظ الحقوق له ما للمسلمين وعليه ماعليهم .

فتبيَّن لك أن القتال الذي حصل في الإسلام لم يكن لنفس ولا لغرض ولا لعصبية وإنما هو لإعلاء كلمة الله لاغير ، ألا ترى قول النبي ﷺ : « ليس مِنَّا من دعى لعصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » وقد ظهر لك كالشمس أن الطبيعة البشرية تستلزم هذا القتال بهذا الوجه على كل ماترتب من فروعه .

ألا ترى أن الرِّق حصل لإظهار ذِلَّة من خالف أمر الله فيما شرع مما أوضحناه لك وألحق اسم الرق بولد الرقيق حتى يظهر لأولاد غير المسلمين أيضاً أن من انضمَّ إلى الظلمة الذين يتجرؤون على الحق والخلق إذا دهمتهم عصابة الحق تدخلهم حوزة الرق هذا إذا لم يقولوا كلمة الحق ويُقرّوا بها وشروطها معروفة ، ومع ذلك فانظر ما ألزمته الشريعة من حفظ الرقيق وعونه وصونه وإطعامه من طعامك وإلباسه من لباسك وإجلاسه معك وإدخاله في حكم أهلك بقوله عليه السلام :

« مولى القوم منهم » وشرح ذلك طويل موضح في كتب السنَّة ومع ذلك فقد نصَّ الشرع بعد كل هذه الحرية المعنوية والمعونة الكلية على العتق وبيَّن أن العتق عتق من النـار ، ووقع النهي عن بيع أُمَّهات الأولاد ، والزجر العظيم لمن آذى الأرقّاء ، أو لم يُعاملهم بمعاملة عياله وأولاده ونفسه في المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فكانت الحكمة تكثير عصابة الحق برغبة كان أو رهبة لاغير ، عكس مايتوهمه من لاخَلاق له فتدبَّر هذه الحكمة العليَّة ترشد .

فإذا فقهت كل ماذكرناه رأيت أن التعصُّب الذي ينسب لأهل الشرع هو عبارة عن تفكُّه جَهلة بأكل الفجل فما أقبح الفاكهة والمتفكِّه ، ولدى التدقيق تعلم أن من لم يتشرع فقد تعصَّب اعتصاب جهل وغلظة طبع لنصرة نفسه وشرِّ عيبه وردِّ القبائح إلى الشريعة ، وإذا ضاقت حضيرة جهله ردَّها إلى أهل الشرع .

وليُعلم لديك أن ما أوضحناه من قولنا القتال على كلمة الحق لاغير لم يكن يفيد لزوم القتال مع الخلق كلهم أو أرباب الدول السائرة التي لم تمسنا مضرَّتهم ولم تعد علينا خطيئتهم ولهم قواعد عقلية يسوسون بها رعيَّتهم ويُصلحون بها شؤون ملكهم وبلادهم وهم أهل كتاب يعتقدون أن الظلم حرام وأن العدل خير وثواب ويخدمون الحرية الشخصية بينهم ولم تكن بيننا وإياهم إلاّ وصلة التجارة والمعاملة الدولية التي اصطلحوا عليهـا في زمـانـنـا بل اللازم علينا دعوتهم إلى السِّلم والمُصافات مع بعضهم كيلا يحدث فيهم بين ملَّتهم وجنسهم مايخلُّ براحتهم ويوجب أذيَّة عامَّتهم ولايحدث فينا بين ملَّتنا وأهل ديننا وبقية رعيتنا مايضر بملكنا

ووطننا ويوجب تنقيص عددنا وضعفنا في الحال والمآل ، على أن القتال على الشروط الشرعية المتقدمة لم يكن لغرض نفس وإنما هو لإعلاء كلمة الله ونصرة العدل والحق ، وتمهيد أكناف الراحة في الخلق فإذا رأيت العدالة العقلية والحرية الشخصية في قوم وعلمت أن ذلك هو المقصود من ثائرة نار القتال وكنت قادراً على تجهيز الجنود والجيوش فلايجوز لك قتال هؤلاء القوم لحصول المقصود الشرعي بطبعه ولا يصحُّ لك ذلك إلّا بمحجة شرعية البتة البتة ويجب عليك عقد السِّلم والمصافات والودّ بينك وبين هؤلاء القوم عصمة لدماء الخلق ورعاية لنظام الشرع وعملاً بأسرار كلام الحق سبحانه وتعالى لما في الفتنة وإظهارها في الناس من العقاب ولكونها أشدُّ جُرماً وأعظم عقاباً من القتل كما في القرآن ، فطالع بنظر الإنصاف ماذكرناه تعلم أن العدل وحق الإنسانية ورعاية شروط المدنية العقلية والطبيعية لو تجسّمت لكانت الإسلامية لاغير وهذا بديهي للمنصف ؛ وأين هذا السَّنن الإسلامي والإنصاف والعدل والحرية والمدنية وحفظ الحقوق الآدمية ورعاية الهيئة البشرية المجتمعة في الشريعة المحمدية من كذب مسلم بالزور والبهتان على الشرع وأهله أو من ظن رجل غربي غير مسلم بادي الرأي من غير علم بأحكام الشرع وحكمه وهل من الإنصاف هذا الظلم الجاف ؟ .

وخذ لك أحلا من ذلك : إشاعة بعض الخذلة الجهلة إلى من هو معذور لعدم علمه ، غير معذور في الاستفسار عن الحقيقة الخالصة من أهل الشيم الزكية والمروءة من البلاد الغربية والطوائف الغير المسلمة أن

في عصابة أمير المؤمنين وإمام المسلمين جماعة من المشايخ وعدُّوني بينهم يقومون بالأدلة عن ألْسن أكابر المتقدمين لعدم إكلاء المدنية ولتنفير المسلمين من المتشيخين وغير ذلك من التهم الكاذبة التي لايُجَوِّزها عقل عاقل ، فما أقول عن هذا المسلم الكاذب الذي تصدّى لهذه الإشاعات إلاّ أنه أدنى همَّة من الكلب أو أقل عقلاً من الحمار لأنه أوَّلاً نسب أهل العِلم إلى الجفا والغلظة وعدم الفهم بحال الزمان وعدم الوقوف عند أحكام الشرع ، وهنا ضدان لايجتمعان إما أن يقول فلان عالم وتحت هذه الكلمة يترتب نفع الناس وعدم التفرقة في الحقوق والسعي بالخير للخلق والعمل بالإصلاح والصلاح وغير ذلك ؛ وإما أن يقول جاهل ، وتحتها ما تَصَوَّره عقله القاصر ، فإن قال عالم فقد كذَّب نفسه بالوصف الذي وصفه لمذمومه وإن قال جاهل فيكذِّبه الظاهر ويُخاطَب بقول الشاعر :

وهَبْهُم يجعلون الصبح ليلاً ... أيعمى العالَمون عن الضياء

* * *

ولاتخلو دسيسته الكاذبة ، وضربته الخائبة من إحدى ثلاثة :

الأولى : قصده إتهام الخلافة السنية بعدم الوقوف عند الأحكام الشرعية ، وقبول آراء زيد وعبيد وشيخ وخوجة وغيرهم وهذا أمر مردود بألفِ دليل على أن أمير المؤمنين ـ نصره الله ـ ذات اجتمعت فيه معالي الشيم والعقل والكمال ومكارم الأخلاق لاتستفزه الآراء الدنية ولايتحرك قدمه الراسخ عن الحدود الشرعية وهو أغْيَرُ الناس على حفظ مودَّة الدول السائرة وطلب السِّلم والمصافات وتشييد أركان المحبة والمعاونة على

إعلاء منار دولته وراحة رعيته وإصلاح شؤون مُلكه ومملكته بالوفاق مع الملوك السائرة والدول المتحابة في جميع الجهات طِبق العقل والنقل بما يؤيِّد شرف المِلَّة ويرفع أركان الدولة وقد أثبت له هذه الأوصاف العالية : الزمان . ولا حاجة عند المنصف للإيضاح والبيان .

وأما أخذه بآراء شيخ وخوجة وغيرهم فمردود بدليل أوضح من شمس الظهيرة وإن يكن قصد المفسد الذي أشاع ذلك تحميل كل حمل ثقيل لمقام الخلافة الجليل إلاّ أنه جهل أن قاعدة السلطنة السنية العثمانية والخلافة الإسلامية إنفاذ آراء الوكلاء تحت أصول مربوطة ومعاملة رسمية ومشورة شرعية بين الملك الأعظم ووكلائه الفخام لادخل فيها لزيد وعمرو ، مؤسسة على أصول قانونية وقواعد معتبرة مرعية لاتمس جانب الخلافة العظمى ولاتلحق أحداً من المتشرفين بخدمة بابها الأسمى وبالخاصة ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ الآية .

إلحاق اسمي فيما أشاعه الكاذب بإعطاء الآراء التي هي فوق حدِّي ومرتبتي ومنزلتي : مجروح مردود بدليل قوله : شيخ أو عالم . فهل للشيخ أو العالم غير قراءة مولد أو درس أو حضور مجلس عبادة ، وقد علم ذلك الخاص والعام ، وكوني ضيف الحضرة السنية وإن كنت قديم الخدمة للخلافة الإسلامية إلاّ أني لا أتجاسر على التشرُّف بالعتبة السلطانية إلاّ إذا دُعيت إليها ولايقع ذلك إلاّ في السنة مرة أو مرتين أو ثلاثة ، ويكون الداعي أمر تعبدي كمولد أو غيره كما تقدم ومع ذلك فإن الله قد وهب لي عقلاً . وعلى الفرض المحال لو استشارني تنزلاً أمير المؤمنين مع علوِّ مقامه ومنزلته عن أن يتنزل لذلك فإني أتصرف بمادة

العقل ، بالرأي الذي لو عرضه على أفكاره الشريفة وعلى الصادقين الخالصين من وكلائه يرونه موافقاً للشرع والزمان ، كافلاً لحفظ نوع حقوق الإنسان ، وذلك عملاً بديني ورعاية لحق نعمة وليِّ نعمتي ، وإمامي وخليفتي أجلّ الله مرتبته .

والثانية : التي حرّكت همة الدّاسّ الكذاب : اعتقاده بأن الغربيين يقبلون كل طعن في حق كل أحد قبل التحقيق والتدقيق ويذهبون خبط عشواء معه فينفذون له آرابه ويقومون له بتفريج كرب نفسه الكذابة وما الظن بأولئك الغربيين السبح وراء كل عائم لما انتشر فيهم من العلوم والمعارف الرفيعة ولما اكتسبته طباعهم من نور المدنية من الأخلاق الممدوحة وحُسن الطباع .

والثالثة : وصفه بالعقربية فإن العقرب تلدغ بغير سبب عملاً بحكم طبيعتها لاغير ؛ وما كان القصد من هذا الاستطراد إلّا إقامة الدليل لصاحب الفتوة والإنصاف والمروءة ؛

إن الجاهل وقليل الحمية يطعن بما لايعلم ويتجرأ لعدم حميته على الطعن بالأشخاص المرئيين فكيف لايسوقه جهله على الطعن بالشرع على أن المرء : عدو لما جَهله . وإني أعتقد جازماً فيما أقول أن الناس الغربيين لو وقفوا حقَّ الوقوف على حِكَم الشريعة وأحكامها ووقفوا على الرجال الراسخين الواقفين على ربط نظامها لأجَلُّوا منزلة الشرع عن طعن الحاسد المتذبذب ولَعَلِموا أن المتشرع هو الحكيم الظريف الطبع الناصح المحب لكلٍّ من الخلق ، وتحققوا أن باهتة المفتري : المتعصب .

ومع ذلك فما علينا أن نقول إذا اعتصب الرجل الشهم لدينه ووطنه وملَّته وجنسه وبلاده اعتصاب حِكمة يؤيِّد شرف الوطن ويدفع عنه الذلَّة والفقر والمحن مع ملاحظة أحكام الدين والزمان ورعاية نوع الإنسان ، ورفع علَم عزَّة ملَّته وأحكم الحب الخالص لخليفته ودولته : فهو الرجل الكريم والغيور العظيم ، وأظن أنه يُمدح بكل لسان في كل البلاد ؛

وعلى هذا انطبع طبع كل عالي جناب في الأغوار والأنجاد ، ويكفي الجاهل الكاذب والسفيه الغافل عند كل لبيب وعاقل عيبه بتحقير عُلماء مِلَّته وإسناده زوراً وبهتاناً العيوب إلى وطنه ودولته ورحم الله القائل :

يحسب الجاهل النجوم على الأر ... ض وجهلاً قد يستخف الجبالا

* * *

وما أرى من بأس بعلوِّ الهمة لحفظ الديار وإعلاء المنار مع العمل بقول من قال :

فكن رجُلاً رِجْله في الثرى ... وهمَّة هامته في الثريا
فإنَّ إراقة ماء الحيا ... ة دون إراقة ماء المحيّا

* * *

وإنما البأس والعيب على من يصرف همَّته لخذل وطنه وإخوانه ويسعى لخراب حيِّه ووضع شانه ، وكل الأسف على أن البعض بل أكثر الغربيين ظنَّ أن المشيخة عبارة عن أكل وشرب وحالة بهيمية تخالف المنفعة الإنسانية ، وتقطع طُرق المدنية ، وكأنها وصف كلالة وثقل وغش وفرد هم على مايُعَبِّرون به : (جزويت) والحاصل أن المشيخة

قلَّ أهلها في هذا الزمان ، وليتهم كانوا كثيرين وإني وإن لم أكن من المشـايخ وخـدمتي للعلم وتشرُّفي بالطريق الذي تفيد تعبير المشيخة خدمة انتساب لأعتاب الشيوخ إلاّ أني أعبِّر لك أن الشيخ وصفه كما قال سيدي السيد أحمد الرفاعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ: ينبغي أن تكون أفعاله وأقواله وحركاته مطابقة للشريعة المحمدية لئلا ينخرط في سلك « إتَّخذ الناس رؤساء جُهّالاً فضلوا وأضلوا » .

فإن كان كذلك ؛ وأحكام الشريعة كما تبين لك أولاً فكيف بك ألا تحب أن كل الخلق تكون مشايخاً وأين هم وخذ من همم المتشرعين مايسرّك وانظر كيف هم :

خطب عمر ـ رضي الله عنه ـ الناس فقال : إني ما أُرسل إليكم عُمالاً ليضـربـوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم وإنما أُرسلهم إليكم ليعلِّموكم دينكم وسُنَّتكم فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه . ثم قال : وقد رأيت النبي ﷺ يقص من نفسه وأمّر سلمة الأشجعي في سرية فقال له: « سر باسم الله ، قاتل في سبيل الله ، فإذا لقيتم عدوكم فادعوهم إلى الإسلام فإن أجابوا وأقاموا بدارهم أي ولم يسيروا معكم إلى قتال العدو فعليهم الزكاة وليس لهم من الفيء والغنائم نصيب وإن ساروا معكم فلهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم ، وإن أبوا فادعوهم إلى الجزية فإن أجابوا فاقبلوا منهم وإن أبوا فقاتلوهم ، ولاتغدروا ولاتقتلوا وليداً ولاتمثِّلوا » .

وجعل أبا موسى والياً على الكوفة وأميراً فباع غلامه العلف في جسر البصرة فشكاه جماعة منهم إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ وقالوا : إن غلامه

يتجر في جسرنا فاستنتج منها لكثرة الكسب للغلام بقوة الأمارة فعزله عنهم وصرفه إلى البصرة ، فسأله شعبة بن المغيرة في ذلك . فقال : أي شيء أعظم من مائة ألف لايرضون عنه أميراً ولايرضى عنهم . وولّى المغيرة الكوفة فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ حين بعثه : يامغيرة ليأمنك الأبرار وليخفك الفجار ؛

ولما جاءه خبر أخذ بلاد كسرى وفتحها جمع الناس وخطبهم وقرأ عليهم كتاب الفتح وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا وإن ملك المجوسية قد هلك فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم . ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون ، فقوموا في أمره على وجل يوفي لكم بعهده ، ويؤتكم وعده ، ولاتُغيِّروا يستبدل قوماً غيركم فإني لا أخاف على هذه الأمة إلّا من قِبَلكم .

وجاء رجل من أهل مصر إلى عمر أمير المؤمنين فقال : ياأمير المؤمنين إني عائذ بك من الظلم . قال : عُذت مَعاذاً . قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ، ويقول : أنا ابن الأكرمين . فكتب عمر إلى عمرو ـ رضي الله عنهما ـ يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه ، فقَدِما فقال عمر : أين المصري ؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر : اضرب ابن الأكْرَمين . قال أنس : فضرب والله لقد ضربه ونحن نحب ضربه فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه ثم قال للمصري : ضع على صلعة عمرو . فقال : ياأمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني فقال عمر لعمرو : منذ كم تعبَّدتم

الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . قال : ياأمير المؤمنين : لم أعلم ولم يأتني .

ومرَّ عمر - رضي الله عنه - بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد ، فقال : ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجِزية في شبيبتك ثم ضيَّعناك في كِبَرِك ثم أجرى عليه من بيت المال مايُصلحه .

وخرج عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى السوق فإذا هو بنصراني يبيع درعاً فعرف عليّ الدرع فقال : هذه درعي بيني وبينك قاضي المسلمين وكان قاضي المسلمين شُريح كان عليٌّ استقضاه فقال ياشُريح اقضِ بيني وبينه . فقال شُريح : ماتقول ياأمير المؤمنين ؟ فقال عليّ : هذه درعي ذهبت مني مُنذ زمان . فقال شريح : ماتقول يانصراني . فقال النصراني : ما أُكَذِّبُ أمير المؤمنين الدرع هي درعي . فقال شُريح : ما أرى أن تخرج من يده فهل من بَيِّنة ؟ فقال عليّ : صدق شُريح . فقال النصراني : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين يجيء إلى قاضيه وقاضيه يقضي عليه هي والله درعك ياأمير المؤمنين ، اتَّبعتك من الجيش وقد زالت عن جملك الأورق فأخذتها فإني أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ثم دفعها إلى الإمام وأسلم على يديه لما شاهده من التمسُّك بأمر الله ورسوله والعدل الشرعي وحسُنَ حاله .

وكان أبو رافع - رضي الله عنه - خازناً لعلي - كرم الله وجهه فدخل عليّ يوماً فرأى بنته - رضي الله عنها - مُزينة وعليها لؤلؤة كان عرفها لبيت المال فقال: من أين لها هذه لأقطعن يدها فلما رأى أبو رافع جِدَّه في

ذلك قال : أنا والله يا أمير المؤمنين زيَّنتها بها . فقال علي ـ كرَّم الله وجهه ـ : لقد تزوجت بفاطمة ومالي فراش إلّا جلد كبش ننام عليه بالليل ، ومالي خادم غيرها ، وأمر بردِّ اللؤلؤة إلى بيت المال .

هذه نقطة من بحر مناقب الخلفاء العظام مع كمال الاختصار وفيها مايكفي من العدل وصون الرعية والوقوف عند حدِّ الإنسانية ، وأما ما منَّ الله به على الخلق بهم وبأكثر أخلاقهم من أمراء الدين وأيمة المسلمين وملوك الموحدين من سعة التجارة وأمن العبادة وقوة الصناعة وعظم المدنية فهو في العباسية والأندلسية والدول المعظمة العثمانية مشهور معروف لايحتاج إلى تفصيل ، وما ذاك إلّا خدمة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ فإن مدارك السياسة انحصرت في الديانة الإسلامية لأن أعمال السياسة الشرعية عدا مافيها من عمران البلاد وتوجه القلوب وإعلاء المجد واستفحال صولة الدولة ، فإن فيها الثواب العظيم والخير العميم الأخروي أيضاً وبذلك صحَّت الأحاديث وجاءت الآيات البيِّنات ، وبذلك يكون التقديس والتطهير من الذنوب بل لايصحُّ بغيره أبداً ، ألا ترى قول النبي ﷺ: « كيف يقدس الله أمة لايأخذ ضعيفها حقه من قويِّها وهو غير متعتع » وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « ثلاثة من أخلاق الإيمان من إذا غضب لم يُدخله غضبه في باطل ، ومن إذا رضي لم يُخرجه رضاه من حق ، ومن إذا قدر لم يتعاطَ ماليس له » وهنا كل السياسة لمن تدبر .

وأما ترقّي المدنية والرفاهية وعلوّ الصناعة وإكمال شأن الدولة والانتظام الوطني فأُمُّه وأبوه العلم ، وقد كان هذا غرس الملّة المحمدية

وثمرها ، ألا ترى ماحثَّ به الرسول ـ عليه السلام ـ من الأحاديث على العلم وحصوله وتعظيم أهله وإجلالهم وحرمتهم ، وما أوضحه من أن الجاهل لا حرمة له ولا وقار ، وليدرك سر قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « مااسترذل الله تعالى عبداً إلّا حُرم العلم » وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « الناس رجلان عالم ومُتعلم ولا خير فيما سواهما » وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « نوم على علم خير من صلاة على جهل » وقال : « همَّة العلماء الرعاية وهمَّة السفهاء الرواية » فإذا علمت ذلك ورأيت مانصَّه الشارع الحكيم من الحثِّ على العلم وتتبعت الآثار رأيت أن أعلم العلماء من سائر الأُمم العلماء الإسلاميون فإنهم أحاطوا بالفضائل وشهدت لهم الآثار وصحَّت عنهم الأخبار ، ومناقبهم في كل فنٍّ من فنون العلم لامعة كالشمس في رابعة النهار ، ولاح لك بالطبع أن العلم صناعة نظرية وصناعية فالصناعية فرع من النظرية والنظرية أصلها ، وثبت لديك بلا إطالةٍ أن العلم على الإجمال أمر به الشرع ، وحثَّ عليه الدين وبيَّن أن لطالب العلم الثواب العظيم والمقام الكريم ، وأمرنا بطلب العلم ولو في الصين ، وأوضح لنا أن الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها ، وتيقَّنت أن تقدم البلاد الأوروبية بهذه العهود القريبة مسبوق بالتقدم الإسلامي والعلم المحمدي والصناعة العجيبة التي ظهرت في الإسلام ، وكل فن رأيت شامخ بنائه اليوم في أوروبا تجد أن أساسه من العرب في الإسلام ولهم فيه التصانيف ؛ فإن قلت : إن البلاد الإسلامية أسَّست بنيانه وأوروبا شيَّدت بالمعارف تجديده وأركانه قلنا : نعم ولكن الفضل للمتقدِّم .

وتحقق عندك بلا دفاع أن هذا الدين المتين أصل الحرية والمدنية والفضيلة والمعالي الجليلة ، ولم يبق للجاحد إلّا إنكار الشمس أو أن يضع عوض اليوم أمس ، وهذا مُحال وهذه واقعة الحال .

فإن أعبتنا بالتأخُّر والبطالة عن هذه الحالة أو عِبتنا بعدم اللحوق بهمم عظيمة بأصولنا العالية الكريمة فلك من وجه أن تقول ، ولنا من وجه أن نقول : أما البطالة والجهالة فلم تكن في بلادنا عامة ، ولا في أشخاصنا كافة ، بل هي في الغالب والجزء الأقل أهل فضل وعلم على هذا الترتيب ولهم من مزايا المتقدمين أوفر حظ ونصيب وما ذاك إلّا بهمة حامي دولة المعارف الملك المعظم العارف خليفتنا الأعظم ، وسلطاننا المحتشم السلطان ابن السلطان ، السلطان الغازي عبد الحميد خان نصره الرحمن .

وأما بطالة الغالب وجهالتهم فالسبب الأعظم فيها : الناس الغربيون المتمدنون فإنهم دائموا التسلُّط على البلاد والممالك قاطعون عن المعارف الطرق والمسالك ، قائمون بصرف الأفكار إلى الحذر ، ولذلك ترى القلوب على حظر ، وكأن مدنيتهم لقرض النوع الإنساني أو لكي يُدخلوا بالخضوع تحت حوزة تسلُّطهم القاصي والداني ، ومع هذا يأخذون بدعوى الاهتمام بإعلاء المعارف في الأقطار السائرة ويتأسفون على دعواهم على ما حلَّ بالبلاد الشرقية من آثار الجهالة الحاضرة فليت شعري إن كانت الهِمَّة للتعليم فأين علم أهل الجزائر ولهم مايزيد عن خمسين سنة تحت قبضة تصرُّف الدولة الفرنساوية وهم إلى الآن محرومون الدخول في مجالسهم الملية كأنهم لاحقوق لهم ، وإذا

نازعت أحدهم في ذلك قال : ما اكتسبوا علماً إذا لزم الأمر وجود أحدهم في هيئة سياسية أن يقدر لعلمه أن يدير مسنده ويحفظ منصبه .

فالجواب لهم : إن كان عدم تعلُّمهم إهمال منكم لهم فأين حقوق الإنسـانية ، وإن كان عدم قدرة منكم على إجبـارهم على العلم فما الفـرق بينكم وبين الإسـلام في الممـالك الشرقية فما بقي إلّا معونة الإسلام بوصف الإنسانية بتركهم على راحة وحُسن حال آمنين الغوائل السياسية ، والخدع الخفية لتسري همة العزيمة والعزم من أفرادهم إلى كل فرد منهم ، وليَخُفَّ ثِقل الهم والفقر الذي أثقلتهم به البلاد الغربية ، وهذا عند المنصف الخطاب الذي لايكون إلّا الاعتراف له بالجواب ، وهو خاتمة الكتاب والحمد لله وكفى .

﴿ وقلت في ديواني التبيان ، الجامع بين الحِكمة والبيان ﴾

قد وهى شأن الأفاضل   وعلا أمر الأسافل
وشؤون الدهر دارت   بين مأفون وجاهل
وقليل الأصل سامى   سادة القوم الأماثل
وكريم العِرق مُلقى   تحت أقدام الأراذل
ومباني العِلم هُدَّت   وانقضت تلك المحافل
عجباً من حال وقتٍ   مُزعجٍ بالنقص كامل
وإلى غير المعالي   باعه الممتد طائل
فعلى الأشرار سهل   وعلى الأبرار صائل
قد يُصيب الوغد مجداً   فينادي هل مُماثل
وتراه أعين الأحبـ   ـار في أعلى المنازل
صفة لو كان يدريـ   ـها اختفى تحت المزابل
كم قريشي حسيب   فيه للمأكول ذاهل
ودَنيٍّ باهِليٍّ   قام للناس يُباهل
وشريفٍ عَلَويٍّ   مَعَ عِزِّ العِلم خامل
وفتىً خالٍ من الـ   ـعقل ارتجاه ألْف عاقل
وعُبَيْد أحمقٌ تـ   ـاه على الشوس الكوامل
ونجيب قُرشيٌّ   من ذوي فضل الأوائل
فاتحي الشام بني مَخـ   ـزوم أعيان القبائل
بيته خَيمة شَعْر   قُطِّعَت منها الحبائل

ولأكـل الخبـز في هَمٍّ وفكـرٍ ومشـاكـل
ولَكَمْ من بحـر فضل شخصه جسم الفضائل
يقـرع الكـرب بفكـر قاطـع منـه السلاسل
وعــطاياه إذا ما مدَّه الـدهـر بحاصل
هِيَ والـمُـزْن سواء لعَـدوٍّ ومُـخـالـل
وعـلى خلق كريم أُسِّسَتْ منه الخصائل
وتـراه وهـو عال بالعنـا للدِّيْن حامـل
يدفـع الحسّـاد عنـه بمـعـانٍ ووسائـل
ولكتم الفضـل يسعى وعـلى هذا يُجـادل
ليُرى خبـلاً جَهـولاً خِيفَـةً من زور ناقـل
هاهـو العقـل عن الآ راب يا للقوم حائـل
قد يُذَمُّ المـرء إن ما قيل ممـدوح الشمائل
وأخـو الـغـدر أمينٌ وأمين الـطبـع ذاهـل
يالـه من قلب عين حار فيه كل فاضـل
حِكمـة لله في الخلـ ـق لإصلاح الفعائل
وشـؤون أثبـتتـهـا للورى هذي الدلائل
ربِّ أرشـدنـا لمـا تر ضى وجنِّبْنـا الـرذائل

* * *

﴿ تقريـظ ﴾

الواعظ المعرب

للعارف بالله يحيى بن عبد الغني أبي النصر السلاوي

والطور وكتاب مسطور في رَق منشور لقد تصدى لإقامة الدليل من نصوص السُّنَّة والترتيل من يبر الدهر إذا حلف بعمره ، ويحظى بمقام الإطلاق من غدى رهين أمره ، جامع أشتات الكمالات ، رافع أعلام الشـرع الشـريف بالبراهين والدلالات ، ذي المجد الذي تقصر عن إدراكه تصوُّرات النُّهى فتنثني عنه قائلة : أنّىٰ يلتقي سُهيل والسُّهى ، فلله دَرُّه من إمام أولغت عزماته في نحور عداته المدى ، وصدق على ذاتـه الشريفة اسم أبي الهدى ، أتاح لنا من أفضاله مايذكر ويشكر ، وللخصم من نصالـه ريب المنـون الـذي طعمه لاينكر ، حيث جاء بالعجب العجاب ، في أنموذج هذا الكتاب ، وجمع لنا فيه كلما نحتاج إليه ، وجرَّد منه على المجادل كلما ينبغي أن يُجرَّد عليه ، وإني لأكتفي بقصور باعي عن عُلوِّ مكانته القُصوى ، فأُقدم المعذرة في سبيل تقريظه بين يدي النجوى :

عُذراً إلـيك من الـذي نسبـوه — لك بالـذي قالـوه أو كتبـوه

فئـة طغـوا وبغوا عليك بجهلهم — فأذقـتـهـم ويلاً بمـا كسبـوه

حسبـوك ضداً يُستطاع فكنت ما — لا يُستـطاع بضـد ما حسبـوه

وبـدا لهم منـك الـذي لم يُبده — ذو سطوة رغـبـوه أو رهـبـوه

لله دَرُّكَ موقعاً زُمر العِدى بالكيد في الشَّرَك الذي نصبوه
هم نازعوك مكانة أُلبستها ثوباً من الشرف الذي سُلبوه
فأريتهم سُبل الهدى إذ أنت في هذا الزمان أخو الهدى وأبوه

* * *

الفقير الداعي خادم الأعتاب

يحيى عبد الغني أبو النصر السلاوي

عفى عنه

﴿ مُصادقة السلف على عَدالة الخَلَف ﴾

وقلت :

قولوا لكل عارف ... وكل جحجاح ولي
مقالة مني لها ... ألْف دليل أكملِ
أبو الهدى روحي التي ... معنى جرت بهيكلِ
وبعد طيٍّ في الثرى ... أبو الهدى وجه علي
وهذه مقالتي ... تُحكى لذي نور جلي
أذِنْته بقولها ... لأهلها فليقل
بين النبي وعلي ... معراجه السامي العَلي

السيد محمد مهدي الرواس
رضي الله عنه

* * *